إنهم النار يصعب عليك إطفاؤها

للقصصي الروسي الكونت ليو تولستوي

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان فى إحدى القرى الروسية فلاح يدعى «إيفان ستراتشيا كوف» وهو من أقوى الفلاحين جسما وأسعدهم حالاً . وكان له ثلاثة أبناء : أما أحدهم فتزوج ، وأما الثانى فقد عقدت خطبته تمهيداً للزواج ، وأما الثالث فلم يشغله شاغل عن فأسه ومحراثه

وكانت زوجة إيفان عاقلة صالحة الادارة . وزوجة ابنه مسالمة صبورة على العمل . فعاشت هذه الأسرة فى وئام ولم يكن ليعلو فيها صوت غير صوت الأب عند ما تعتوره نوبة الربو

وكان إيفان يملك فى جملة ما يملكه ثلاث مهارى ولكل منها فصيل . ويملك أيضاً خمسة عشر رأساً من الماشية وبقرة وعجلها . وكانت المرأتان تقضيان ساعات النهار فى صنع الأحذية للأسرة وفى خياطة الثياب والمساعدة فى أعمال الحقل . ويقضى الرجال هذه الساعات فى أعمالهم الزراعية . وإذا ما قل نتاج الأرض فى عام من الأعوام اعتاضوا عن النقص ببيع شئ من المواشى ، وبذلك سارت شئون الأسرة على خير ما يرجى

لكنه لسوء الحظ كان يقيم بالمنزل المجاور رجل اسمه « جبريل شرومى » أو جبريل الأعرج وكانت بينه وبين إيفان عداوة شديدة

وقد كانت الأسرتان فى عهد « جوري » والد جبريل وعهد والد إيفان على صلات حسنة ؛ فاذا احتاج النساء فى أحد المنزلين إلى غربال أو مثل ذلك ، أو احتاج الرجال إلى فأس أو ما أشبهه ، بادر أحد المنزلين إلى استعارة ما يريده من جاره . وكذلك إذا رعت بقرة مما يملكه أحد الفريقين فى أرض الفريق الآخر كان كافياً أن يعالج الأمر بالرجاء إليها أن تمنع الماشية من اجتياز حدود الأرض التى أعدت لها . أما الضن بما يطلب ، وأما اغتيال حاجات الجار فأمران لم يعرفا فى العهد الأول بين أهل المنزلين المتجاورين . فلما مات كبيرا الأسرتين نشأ الخلاف وكان مداره حول صغائر تافهة

كان لزوجة ابن إيفان دجاجة تبيض فى الحديقة ؛ وفى أحد الأيام أزعج الأطفال هذه الدجاجة على ما يظهر فطارت إلى الحديقة الأخرى وألقت بيضتها هناك ؛ وذهبت زوج الابن كعادتها فلم تجد البيضة ، وسألت حماتها وإخوة زوجها فقالوا إنهم لم يأخذوا شيئا . وزاد أصغر الأبناء واسمه « تارا » على ذلك أن الدجاجة لابد أن تكون قد ألقت بيضتها فى منزل الجيران لأنه سمع الصيحة من هذه الناحية

وأطلت فرأت الدجاجة فى حديقة الجيران تهيئ مع ديك مبيتاً لها فى تلك الحديقة ، فسألت الجارة وكانت إذ ذاك واقفة بالحديقة : أليست هذه دجاجتها؟ فقالت : نعم . وطلبت إليها منعها عن تخطي السور بين المنزلين

قالت : «ألم تضع دجاجتنا بيضها فى حديقتكم؟» فكان الجواب : « لا علم لنا بشيء من ذلك، وعندنا بحمد الله من البيض ما فيه الكفاية . وهل تحسبيننا نأخذ ما هو ملك الجار ؟ كلا يا جارتي كلا »

غضبت الصغيرة من هذا الجواب وقالت كلمة كان الأولى ألا تقولها ، فردت عليها الجارة بكلمتين من نفس النوع ، واشتدت اللجة وساءت ، وخرجت زوجة إيفان فاشتركت فى هذه المعركة الكلامية ، ثم خرجت زوجة جبريل فأرت جارتيها حدة لسانها ؛ وتحول الحديث العنيف إلى ضجة ، فصارت كل منهن تصيح بأعلى صوتها ؛ وانقلبت المحاجة إلى كلمات من هذا النوع : « أنت كذا ... وأنت كذا ... أنت لصة ... وأصابك الطاعون ... أنت أتلفت غربالى يوم استعرته ... ردى إلى الذى عندك ... »

والتقت الجسوم بعد هذا السباب فتمزقت الثياب، ووصل جبريل فى هذه اللحظة إلى الميدان ، فتولى الدفاع عن زوجته ؛ وجاء إيفان وابناه وانضموا إلى الجانب الآخر ؛ وكان إيفان قوياً ولم يقصر فى إظهار قوته ؛ وجاء الفلاحون من المنازل المجاورة ليفرقوا بين المتشاجرين ، ولكن لم يصلوا إلا بعد أن جرد إيفان جاره من لحيته

وجمع جبريل شعره المنتوف وذهب إلى محكمة الإقليم وهو يصيح : « إننى لم أرب لحيتى هذا العمر لكى ينتفها إيفان »

ولم يفت زوجة جبريل أن تذكر جارتها بأن إيفان سيسجن أو ينفى إلى سيبريا من أجل جريمته هذه

كانت هذه بداية العلاقات السيئة بين الجيران ، واستمرت الخصومات منذ ذلك اليوم ؛ وكان قسيس القرية لا يكف عن وعظهما ودعوتهما إلى الصلح ، لكن أحداً لم يصغ إلى دعوة من هذا القبيل

قال القسيس : « إنكما تبديان حماقة عظيمة إذ تأذنان لهذه الخصومة بالاستمرار ، ويكفيكما أن تتذكرا أن سببها بيضة . إن خسارة بيضة ليست بالشيء الذي يؤسف له . ومع أنكما تلحفان فى ذكر العداوة فلا يزال أمامكما مجال للصلح والتفاهم فليذهب كل منكما إلى الآخر طالباً صفحه ، نازلاً عن حقه إن كان يحسب أن له حقا ؛ وليس يبقى الحق كما هو إذا استبقاه المرء فى نفسه ، ولكنه يزيد وينمو على مر الزمن

لم يصغ الفريقان إليه لاعتبارهما إياه غير عالم بتفاصيل الخصومة ، ولأنه رجل اعتاد أن يتكلم عن السلم سواء أكان له موضع أم لم يكن

وكان إيفان يقول لأصحابه : « إنه لم ينتف لحية جاره ، ولكن ذلك الجار نتف لحية نفسه ، وهو الذى مزق قميصى ... الخ »

وتبودلت القضايا بين الفريقين فى المحاكم ، وفى الوقت نفسه فقدت قطعة جديدة من عربة جبريل واتهم نساء جبريل أبناء إيفان بسرقتها ، فنشأت فى المحاكم قضية أخرى ؛ وبمرور الزمن كان كل من الجارين يتهم الآخر بتهمة جديدة ، وتعلم نساؤهما هذه الطريقة ، حتى سئمت القرية وملت من شجارهما وتقاضيهما

وكان أكبر أمل فى نفسى إيفان وجبريل أن يسجن خصمه أو يحكم عليه بالغرامة ، وزادت حياة كل منهما مرارة . وكلنا قد لاحظ أن الكلاب إذ تضرب على المشاجرة تزيد فى مشاجرتها حدة ، وكذلك المتخاصمون من الناس يزيدون لدداً فى

الخصومة إذا عنفهما الناس عليها ، لأن أحدهم يعرف أن سبب هذا التعنيف هو تحدى خصمه إياه ، كما يعرف الكلب أن سبب الضربة التى نالته من يد سيده هي العضة التى نالته من الكلب الآخر

وكذلك كلما حكم على أحدهما بالغرامة أو بالسجن زادت عداوته وزاد عزمه على الانتقام

واستمرت الحال على ذلك ستة أعوام لم تتغير فى خلالها نصيحة القسيس وموعظته فكان لا يزال يقول: « أتركا هذه الخصومة فما تليق بين جار وجار فإن عداوتكما تزيد ما زدتما تعهداً لها »

وظل الجاران لا يصغيان إليه

وفى بداية للعام السابع حضرت زوجة ابن إيفان عرساً حضره جبريل وشنعت عليه فيه بأنه سرق جواداً ، وكان جبريل سكران فى هذا العرس فضربها ضربة عنيفة ألزمتها الفراش أسبوعاً لأنها كانت حبلى. وسر إيفان من هذا الحادث سروراً عظيما لأنه أتاح له الفرصة فى رفع قضية جديدة وهو يقول فى نفسه إنه فى هذه المرة سيتخلص من جاره نهائياً بنفيه إلى سيبريا

لكن زوجة الابن شفيت ولم تجهض، فحزن إيفان على أن القضية لم تقيد جناية ، وعزى نفسه بأن محكمة الجنح قد تحكم على الجانى بعقوبة مخزية ، فرشا كلا من كاتب المحكمة وحاجبها بنصف جالون من الأشربة ليقترحا على القاضى عقوبة الجلد فى هذه الخصومة

وصدر الحكم بالجلد على قارعة الطريق العام فأصبح وجه جبريل عند سماعه شديد الشحوب ، وكان تعليقه عليه بعد خروجه من قاعة الجلسة إنه وإن تكن العقوبة شديدة فهو يأمل أن يذيق خصمه عقوبة أشد منها

وسمع إيفان هذا الجواب فعاد إلى القاضى واستشهد بالجنود ، واستدعى القاضى الخصمين وقال : « لقد كانت جريمة مزرية منك يا جبريل أن تضرب امرأة وهى حبلى . ومهما يكن فى نفسك من الغيظ على جيرانك فليس فى الدنيا ما يبرر هذه الجريمة . ولكن إذا اعترفت بالخطأ واعتذرت عنه واصطلحت مع خصمك فإنى سألغى هذه العقوبة

وهنا تدخل كاتب المحكمة فقال إن المادة ١١٧ من قانون العقوبات لا تجيز إلغاء العقوبة بعد صدور الحكم، وإن كان الصلح يمحو أثر الجريمة قبل النطق به

لكن القاضى لم يلتفت إلى ملاحظة الكاتب وقال : « يكفى ! أسكت فإن هذه المادة تتعلق بنا لا بك ونحن نراقب الله قبل مراقبة القانون ، وقد أمر الله بالصلح بين الخصوم »

وحاول القاضى أن يقنع الطرفين بالصلح ولكنه لم ينجح لأن جبريل أصر على عدم الصلح مع أنه هو الذى ستنزل به العقوبة ، وكان جوابه : « أنا رجل ليس بينى وبين الخمسين غير عام واحد ولى ابن متزوج ولم أضرب قط منذ كنت طفلا فعند ما يأتى هذا السافل ليقاضينى ويستصدر ضدى حكما بالجلد لا أستطيع أن أطلب الصفح منه ولتنزل بى العقوبة التى أرادها لى ولكنى سأجعله يندم عليها

وهنا خانه صوته ولم يستطع أن يزيد بل التفت وخرج من قاعة الجلسة راغباً إيقاع العقاب بنفسه

وكان بين مكان المحكمة وبين منزل إيفان عشرة فراسخ . ولذلك لم يصل إيفان إلى منزله إلا فى ساعة متأخرة ؛ وفى أثناء غيبته أعاد النساء الماشية من المرعى إلى الحظيرة .

وقبل وصوله إلى منزله جلس فى ظل شجرة يستعرض حادث اليوم ويتخيل حالته هو نفسه لو أنه كان فى مكان جبريل . وفى هذا الحين سمع سعال القسيس بجانبه ، وظل كلا الرجلين يسعل مدة ما ، وأخيراً قال القسيس : « هل أصدرت المحكمة حكمها ؟ »

فقال إيفان : « نعم وقد حكمت بعشرين جلدة على جبريل » فهز القسيس رأسه وقال : « آذيت نفسك يا إيفان أكثر مما آذيته ، وأى فائدة تستفيدها أنت بعد أن يجلد ؟ »

قال إيفان : « أردعه فلا يعود إلى ارتكاب جرائمه » فقال القسيس : « أية جرائم هذه ؟ ألست ترتكب مثلها وشراً منها ؟ »

قال إيفان : « لكننى إنما أريد زجره وقد كاد يقتل زوجة ابنى وتهدد بأن يحرق مزرعتى فلماذا أذعن له ؟ »

فتنهد القسيس وقال : « إن البغض يا بنىّ قد أعماك ؛ أنت ترى خطايا الغير ولكنك لا ترى خطاياك ؛ وأنت تقول إن جبريل قد آذاك فهل يمكن أن تقع خصومة بين اثنين ويكون مثارها جانباً واحداً ؟ أنت ترى أخطاءه ولكنك لا ترى أخطاء نفسك . ألم تتنح لحينه ؟ لقد كانت العلاقات حسنة بين أبيك وبينه ، وكانا يتبادلان النصائح ؛ ولقد حضرت بعض المواقع الحربية وأرى أنك وخصمك أشد عداوة من فريقى الجنود فى موقعة « بلفنا » وليس هذا أسلوباً للحياة . إنك أب ورئيس أسرة ، فأى درس هذا تلقنه أبناءك ؟ لقد رأيت اليوم ابنك « تارا » يهزأ بعمته « أرينا » ولم تصنع أمه سوى أنها ضحكت منه . فهل تريد تربيته على هذه القاعدة : يضرب فيضرب فيرد الضربة ضعفين ويتلقاها أربعة أضعاف ؟ كلا يا بنى فهذه ليست التربية الصالحة . لقد كان يمتنع كل هذا لو أن الخاطىء طلب الصفح . لكن لماذا تسمعنى وتسكت ؟ ألا ترى وجهة الحق فيما أقول ؟ »

لم يجبه إيفان ، وعاد القسيس إلى السعال ثم استأنف حديثه فقال : « انظر إلى العلاقة بيننا وبين الأتراك ، وانظر هل تحسنت العلاقات بعد موقعة بلفنا ؟ وهل كسبنا أو كسب الأتراك شيئاً بسبب هذه الموقعة ؟ إنك وأبناءك أقوياء كالنسور ، وأنتم أغنياء ومع ذلك لا تلتذون لذة الغنى ، ولا عزة القوة ؛ وقد كان عليكم أن تقضوا الوقت الذي تقضونه فى المحاكم بالمزرعة أو فى الدار ، وأن تقضوا ساعات المشاجرة فى سمر وفى حديث . أتخبرني لماذا لم تحصدوا قمحكم إلى الآن مع أن كل جيرانكم قد حصدوا قمحهم ؟ »

ظل إيفان ملازماً للصمت ، واستمر القسيس يقول : « أصغ إلىّ يا بنىّ . اركب جوادك الآن وعد إلى المحكمة فاصفح عن خصمك ، واطلب إلغاء الحكم ، وادع خصمك إلى منزلك فأولم له وليمة . إن غداً عيد العذراء فانتهزه فرصة للتقرب إليها وإلى ابنها

تنهد إيفان وقال فى نفسه : « لاشك فى أن القسيس مصيب ، ولا شك فى أن امتناعى عن المصالحة يرجع إلى جهلى بالطريقة المؤدية إليها

وكأنّ القسيس أدرك ما جال بخاطر إيفان فى هذه اللحظة فقال : « لا تتأخر يا إيفان فإن النار إن أهملتها صعب عليك إطفاؤها »

وكان يريد أن يزيد فأقبل نساء أسرة إيفان فرحات مبتهجات بالحكم الذى علمن بصدوره ضد جارهن . وقد انتهزن هذه الفرصة فبدأن مشاجرة

جديدة مع أسرة جبريل . وقلن إن زوجة ابن جبريل تهدد بمخاطبة النائب العام وعرضها عليه هذه القضايا بحذافيرها بل تهددت أيضاً بأن تكتب رسالة إلى القيصر نفسه . وعند ما سمع إيفان هذه الكلمات جمد قلبه وفتر عزمه السالف على الصلح

* * *

وفى الصباح سمع صوت جبريل وهو عائد إلى المنزل . وكان جبريل يصيح : « سأذهب وإياه إلى الشيطان . لابد من قتله ! »

لكن جبريل لم يقل أكثر من ذلك فاغتاظ إيفان لا لأن هذه الكلمات قيلت عنه ولكن لأن أكثر منها لم يقل . وكانت زوجة إيفان فى هذا الوقت تعد العشاء . ولكن « تارا » لم يكن موجوداً بالمنزل . ودعت المرأة زوجها للعشاء ، ولكنه ظل منتظراً عودة ابنه الأصغر وقد مرت بخاطره كلمة كان جبريل قد قالها وهي أنه يريد أن يحرق إيفان ويحرق أبناءه

وكانت الرياح إذ ذاك تهب عنيفة ، وكان الظلام شديداً فى الطرقات ، وتأخرت عودة ابنه فخرج إيفان للبحث عنه

وفى المزرعة رأى شيئاً يتحرك ثم يختفي وراء شجرة ولم يميز الشبح لشدة الظلام . وذهب إلى حيث رآه فلم يجد شيئاً . وتحسس وأرهف أذنيه ليسمع ولكنه لم يحس وجود شيء

وترك المزرعة إلى الاصطبل فرأى وميضاً يسطع على حين فجأة ثم يختفي ، ورأى رجلاً من الجهة التى صدر منها الضوء وأحس فى قلبه خفقاناً كرفرفة العصفور بجناحيه . وأسرع ليمسك بذلك الشبح فرأى وميضاً آخر من نفس الناحية . وما هى إلا لحظات حتى علت الألاهيب ورأى إيفان حريقاً مضطرماً على حين فجأة ، ورأى فى مثل ضوء النهار رجلاً أعرج ينظر إليه ويجرى فراراً منه

صاح إيفان : « لن تستطيع الفرار منى » وجرى فأمسك بذيل سترته ، ولكن تلك القطعة من القماش انفصلت عن الثوب وفر الأعرج وصاح إيفان بالخفراء أن يسعفوه

هرب جبريل وجد إيفان فى اللحاق به فلما أعياه وقف . وفى هذه اللحظة سمع صوت فرقعة شديد والتفت فرأى البناء كله أصبح ألهوباً من النار ، وامتدت الظلال والشعب إلى منزله فرفع يديه فى يأس إلى السماء وصاح بالجيران ، ولكن صوته خانه وهو أشد ما يكون رغبة فى موالاة النداء . وأراد الجرى فخانته قدماه وعجز عن الاستمرار على الوقوف فوقع ، وبعد قليل ازدحم المكان بالجيران ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً . وانتقلت النار من الاصطبل إلى منزل إيفان ، ثم انتقلت بسرعة إلى منزل جبريل ثم إلى سائر منازل القرية . واستمر الحريق طول الليل ؛ وكان أهل القرية يتعاونون على إطفائه فى غير منزلى الجارين المتخاصمين . وتولى إيفان وحده إطفاء النار فى منزله بعد أن خرج كل أهله منه وكانوا يحاولون منعه ولكنه لم يكف حتى تطاير شعر لحيته المحترق وحتى احترقت يداه . وكان أبناؤه ينادونه وهو لا يصغى فأيقنوا أنه جن من الحزن

وأقبل الصباح وليس لمنزل إيفان أثر . وجاء القسيس يسأل إيفان : « ألم يصدق قولى يابنى ؟ من الذى أحرق القرية ؟ »

فقال إيفان : « لقد رأيته بعينى رأسى يحرق الاصطبل »

قال القسيس : « إننى يا بنىّ لن أعيش طويلاً وأريد إصلاح بينكما قبل أن أموت فمن منكما المذنب ؟ »

فحملق إيفان فى وجه القسيس ولم يقل شيئاً

فقال القسيس : « تكلم قبل أن يصدر الله كلمته فيك ، من منكما المذنب ؟ »

اندفع إيفان فى البكاء وقال : « أنا المذنب يا أبى » ثم جثا على ركبتيه وقال : « اعف عنى يا أبى فانى خاطئ ، جارم »

قال القسيس : « عفا الله عنك يا بنى » فاشتدت نوبة البكاء وقال : « ولكن يا أبى لا أعرف كيف نعيش بعد حدوث الذى حدث »

قال القسيس : « ستعيش وستدرك ما فقدته من ثروة إن أخلصت لله بعد يومك وسامحت المسيء » ثم ابتسم وقال : « انظر يا إيفان ، لا تقل من الذي بدأ بإيقاد النار فإن الله جدير بأن يعفو عن الخاطئين بادئين أو معقبين »

وأجرت الحكومة التحقيق فلم يبلغ إيفان عن جريمة جبريل . ودهش جبريل من امتناع خصمه القديم عن التبليغ ضده . وبدأ شعوره الجديد نحوه بالخوف منه ، ثم ألف منه طباعاً غير التى اعتادها ، ثم امتنعت الخصومة لامتناع الاستمرار على أسبابها . واقتدى نساء الأسرتين برجليهما وجددت كل أسرة بناء منزلها وتجددت الليالى المحترقة واستمر إيفان وجبريل جارين وصارا صديقين

ولم ينس إيفان نصيحة القسيس بأن النار يجب البدء فى إطفائها وهى شرار ، فكان كلما أساء إليه أحد لم يضع الوقت فى محاولة ضبطه متلبساً بجريمته بل يبدأ بإطفاء الشرارة الموقدة

ولم يفت إيفان ، على تقدم السن ، أن يبدأ حياة جديدة ، وأن تكون سعيدة بالعفو وبالتسامح

عبد اللطيف النشار

مواعيـــــد الشتاء
لخطوط شركة مصر للطـــــيران

ابتداء من ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٧ { من مصر إلى بغداد عن طريق فلسطين كل أربعاء وسبت / من بغداد إلى مصر عن طريق فلسطين كل خميس وأحـد

ابتداء من ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ { من القاهرة إلى أسيوط والأقصر وأسوان كل اثنين وجمعة / من أسوان إلى الأقصر وأسيوط والقاهرة كل ثلاثاء وجمعة

أما الخطوط الأخرى الآتية فعلى حالها :

من القاهرة إلى الأسكندرية ثلاث رحلات يومياً ذهاباً وإياباً
من القاهرة إلى بورسعيد رحلتان يومياً ذهاباً وإياباً
من الأسكندرية إلى بورسعيد رحلتان يومياً ذهاباً وإياباً
(رأساً والأخرى عن طريق القاهرة)
من الأسكندرية أو بورسعيد أو القاهرة إلى أسيوط رحلة يومياً ذهاباً وإياباً
من الأسكندرية أو بورسعيد أو القاهرة إلى فلسطين وسوريا رحلة يومياً ذهاباً وإياباً